الشكوى في شعر أبي فراس الحمداني
دراسة تحليلية

د. أيمن السيد علي الصياد

مقدمة

نال شعراء بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب اهتمامًا خاصًا لدى النقاد قديمًا وحديثًا، وحظي المتنبي – شاعر العربية – بنصيب كبير من هذه الدراسات، وحاولت الدراسات الأدبية حديثًا أن تلقي الضوء على شعراء آخرين إلى جواره، فكانت الدراسات عن الصّنوبري، والسُّري الرَّفاء، والببَّغاء، وأبي فراس الحمداني، وهذا الأخير هو الشاعر الفارس موضوع الدراسة.

ذكرت عديد من الدراسات أسبابًا كثيرة وراء شهرة المتنبي، وانشغال النقاد بشعره وشخصيته قديمًا وحديثا[١](١)، ويبدو أن هذه الشهرة كانت سببًا قويًّا من بين أسباب أخرى أدّت إلى عدم الاهتمام بشعر أبي فراس وغيره من شعراء بلاط سيف الدولة الحمداني، ونحاول خلال هذا البحث أن نقف مع شعر أبي فراس الحمداني لنلقي الضوء على هذا الشاعر العربي الأصيل شعرًا وخُلقًا من خلال تناول فكرة: الشكوى في شعر أبي فراس الحمداني؛ وذلك من خلال عرض سريع لطبيعة حياة الشاعر، والمصادر الأولى التي جعلت فكرة الشكوى تسيطر على الشاعر خاصة في مرحلة من مراحل حياته، وهي المرحلة الأخيرة منها خلال بقائه في الأسر في بلاد الروم لمدة أربع سنوات. فاض نهر الشاعر خلالها بأعذب الكلمات، والصور في قصائد تحمل بين طياتها كثيرًا من مظاهر الشكوى والعتاب لسيف الدولة وللأصدقاء.

فالشكوى عند أبي فراس لها مقدمات سنعرضها من خلال إطلالة سريعة على حياة الشاعر في مراحلها الأولى، فالشكوى عنده لها أشكال متعددة كشكوى الصديق والقريب والزمان والحساد، ومع تكرار الشكوى في روميَّات أبي فراس الحمداني فقد ألقت في نفس الشاعر علامات لليأس والانكسار سنحاول استعراض هذه الآثار وأسبابها. وأرى أن ظاهرة الشكوى في شعر أبي فراس الحمداني يمكن تناولها من خلال: عرض لبعض مصطلحات البحث مثل: الشكوى، والحزن،

(١) : شاعر بني حمدان، أحمد بدوي، مكتبة الأنجلو، مصر، ١٩٥٢م. وأبو فراس في روملياته، خالد سعود، النادي الأدبي، المنطقة الشرقية، السعودية، ١٤٢٨هـ. عصر أبي فراس، يوسف بكار، مؤسسة البابطين للإبداع الشعري، ٢٠٠٠م. شعر أبي فراس الحمداني، ماجدولين بسيسو، الرياض، ١٩٨٨م. وفنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مصطفى الشكعة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨١م. وشعر الحرب في أدب العرب، زكي المحاسني، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م. الأسر والسجن في الشعر العربي، أحمد البرزة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٩٨٥م.

واليأس، والانكسار، ثم عرض سريع لحياة أبي فراس من الإمارة إلى الأسر، ثم استعراض لأسباب الشكوى عند أبي فراس، واتجاهات الشكوى في شعر أبي فراس، وأخيرًا آثار الشكوى في شعر أبي فراس.

وقد اهتم الباحث بدراسة شعر أبي فراس حيث يرى أن هذا الشاعر لم ينل حظه من البحث والدراسة حتى الآن، فهناك عديد من المظاهر النقدية التي يجب أن يهتم بها الباحثون من خلال عدة جوانب نقدية تعتمد على معطيات علم النفس التي تساعد الباحثين على فهم شخصية الشاعر وعلاقته بالآخرين، ومدى تأثر الشاعر بالظروف النفسية التي مرَّت به خلال مراحل حياته المختلفة، كما تساعد دراسة شخصية الشاعر في الإجابة عن بعض الأسئلة التي يمكن أن يطرحها البحث مثل:

* هل هناك علاقة بين الشكوى – في شعر أبي فراس – وموت أبيه وهو صغير؟
* وهل تأثرت شخصيته بعدها وهو يتيم وابن أمير، وشعوره الدائم بأنه يأخذ أوامره من ابن عمه سيف الدولة، وحين يحكم ويكون أميرًا فبأمر من سيف الدولة وهبة منه للشاعر؟
* وهل كان يرضى أبو فراس بمكانته كتابع لسيف الدولة حتى قبل أسره من قِبل الروم ثم بقائه في الأسر لمدة أربع سنوات ؟
* وهل كان الشاعر صادقًا مع نفسه، وهو في أسره يشكو ويعاتب ويحزن من سيف الدولة، ثم يقول أنه مازال على إخلاصه وحبه للأمير؟!
* ولماذا لم نجد أي قصيدة – في ديوانه – رثاء لابن عمه سيف الدولة؟!
* ولماذا حاول الشاعر السيطرة على حكم حمص بعد موت سيف الدولة؟

كل هذه التساؤلات وغيرها هي ما تعطي شعر أبي فراس أهمية خاصة لدراسته وتحليله من واقع شخصية الشاعر، وحرصه على الزعامة السياسية، وإحساسه بذاته، وسنحاول خلال صفحات البحث الإجابة عن هذه التساؤلات.

الشكوى وآثارها لغة واصطلاحًا

الشكوى هي المظلة الكبرى التي يقع تحتها بعض المصطلحات مثل: الحزن واليأس والانكسار، وهي من آثار الشكوى في شعر أبي فراس الحمداني.

فالحزن: ورد في لسان العرب (ج١٣/١١)، ومختار الصحاح (ج١/٥٧) الحُزنُ والحَزنُ ضد السُّرورِ. والحزن دائمًا يكون بفقدان شيء عزيز، وعلى الرغم من أنه عادة ما يتضمن فقدان شخص بالموت؛ فإنه ينطبق على عديد من المواقف الأخرى، كما أنه ينطبق على الناس كافة بغض النظر عن الهوية والفكر.

وللحزن مراحل يمرُّ بها الشخص عند الإصابة بمشاعر الحزن يمكن أن تختلف في تسلسلها ومدتها الزمنية تبعًا لكل شخصٍ، وهذه المراحل هي كالتالي:[٢]

المرحلة الأولى؛ الصدمة: إنَّ الشخص يستغرق بعض الوقت حتى يدرك الفجيعة التي حدثت له. وتتنوع ردود الأفعال الأولية بين الذهول وإنكار الواقع، وعدم التصديق، وعدم القدرة على التفكير السليم.

المرحلة الثانية؛ الرفض: حيث يرفض الشخص الاعتراف بالواقع، ويشعر بمشاعر قوية وعنيفة مثل: الشعور بالغضب والذنب والخوف والاستسلام والضياع، مع تعرضه لصراع بين إنكار ما حدث وتصديقه.

المرحلة الثالثة؛ الاضطراب: يدرك الشخص خلال هذه المرحلة الحقيقة، ومن ثمّ فهي تُعدُّ أصعب المراحل بين مراحل الحزن، والتي يتعرض فيها الشخص للكآبة واليأس والاكتئاب والقلق والارتباك.

المرحلة الرابعة؛ إعادة التنظيم: يبدأ الشخص في الرجوع لواقع الحياة، واكتساب توازن أكبر، مع القدرة على استرجاع الذكريات السعيدة، ويعود الشخص لممارسة حياته الطبيعية بقيم مختلفة ومعنى جديد.

[٢] : انظر موسوعة علم النفس: الأكاديمية العربية البريطانية لعلم النفس، WWW.abah.co.uk .

اليأس: جاء في تاج العروس (ج١٥/٤٢٧) اليأس: ضدّ القُنوط وهو ضد الرجاء، أو قطع الأمل عن الشيء. واليأس: انقطاع الطمع من الشيء[٣]. واليأس هو شعور يصيب الإنسان كدليل على فقدان الأمل في تحقيق أمر ما، وقد يؤدي اليأس إلى تحريك مشاعر وعواطف أخرى مثل: الاكتئاب والإحباط، وأشدُّ اليأس يُسمى قُنوطًا، كما يدل أيضًا على الاستسلام وقبول الوضع الحالي. ويرى كثيرون أن اليأس والقنوط بمعنى واحد[٤].

"والفرق بين اليأس والقنوط، وكلاهما بمعنى قطع الرجاء من رحمة: أن اليأس من منعات القلب، والقنوط: ظهور آثاره على ظاهر البدن، وقيل هما مترادفان من غير فارق بينهما"[٥].

الانكسار: انكسر، ينكسر، انكسارًا، وانكسر الزجاج: تحطم وتهشّم، وانكسار القلب: أصابته صدمة، ومنها قلب كسير: متألم، وانكسرت شوكته: هُزم وذُل وهان أمره[٦]. والانكسار حالة نفسية تصيب الإنسان في مرحلة متقدمة من الاكتئاب الذي ينتج بدوره عن الحزن ثم اليأس فالاكتئاب، وفي النهاية تسيطر على الإنسان حالة من الاستسلام والانكسار.

والحزن واليأس والانكسار دلالات نفسية جاءت في شعر الشكوى عند أبي فراس الحمداني.. فالشكوى هي المفهوم الشامل الذي تكررت خلاله هذه المفاهيم، **فالشكوى:** التوجع من ألم ونحوه، وهي أحد أغراض الشعر، وعادة ما تشير إلى التألم من جفوة الحبيب وبُعده عن المحب، أو من قسوة الدهر، أو من أولياء النعمة[٧].

والشكوى في كثير من الأوقات هي سلاح من لا يملك أمره، نحو المريض أو الأسير، ويحاول من خلال هذه الشكوى أن يجد المساندة المعنوية، أو المادية بطرق مختلفة من غيره. " والشكو في الشعر العربي فن من فنون الشعر الوجداني العميق، وهي بعد ذلك لون من ألوان

---

[٣] : العسكري: معجم الفروق اللغوية، دار العلم والثقافة، مصر، ١٩٩٧م، ٤٣٦/١.
[٤] : انظر الطبري: جامع البيان، ٤٠/٥، ١٤٨/٢٨. وانظر الزجاج: معاني القرآن، ١٨١/٣.
[٥] : محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير، بيروت، ٢٠٠٣م، ج١٠/٣.
[٦] : أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، مصر، ٢٠٠٨م، ج١٩٣٢/٣.
[٧] : معجم اللغة العربية المعاصر: ج٢/ ١٢٣٠.

الشعر المتجدد لاتساع نطاقها بين الشعراء نتيجة للحياة الاجتماعية القاسية في ذلك العصر، وبخاصة شكوى الزمان أو الدهريات، وهناك من فروع هذا الفن شكوى الأهل والأصدقاء واختلاف المعروف بين الناس."[٨]

والشكوى في شعر أبي فراس هي الأكثر تكرارًا خلال روميَّاته، ويبدو هذا طبيعيًا نظرًا للظروف النفسية الصعبة والمادية التي مرّ بها في أسرّ الروم، حيث دارت به الأيام، واختلفت معها الأحوال فصار أسيرًا ذليلا .. وحيدًا بعيدًا عن الأهل والأصحاب، بعد أن كان فارسًا أميرًا عزيزًا،

أبو فراس من الإمارة إلى الأَسْر

هو الحارث بن سعيد بن حمدان، كان أبوه واليًا على الموصل من قِبل الخليفة الراضي، وكان مشهورًا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة، واقترن برومية أنجب منها ابنه الحارث ٣٢٠هـ ولقّبه أبا فراس.. ولم يلبث سعيد أنْ قُتل غدرًا، وابنه يخطو في سنته الثالثة... ولم يلبث ابن عمّه وزوج أخته سيف الدولة الحمداني أن اشترك مع أُمّه في الرعاية والعناية، وولَّاه على منبج بلدة قرب حلب وهو في السادسة عشرة من عمره.[٩]

فالشاعر أبو فراس الحمداني من أسرة عريقة عُرفت بالشجاعة والفروسية والسلطة، غير أنَّ يدَ الغدر اغتالت والده وهو لا يزال طفلًا صغيرًا، فحُرِم الشاعر مصدرًا مُهمًا للأمان والحماية والقوة، وظلَّ الشاعر في رعاية والدته قُرابة عشر سنوات وهي تجتهد في تربيته وتعليمه. حتى إذا صار على أبواب الشباب تلقَّاه ابن عمّه سيف الدولة بالرعاية، ودفع به بين العلماء والفرسان، فنهل هذا الشاب العلم عن علماء كبار كابن خالويه، وصار الطفل شابًا فارسًا يثبت لابن عمه – يومًا بعد يوم – قدرته على القتال والقيادة، وتحقيق النصر في عديد من المعارك مع الروم.

[٨] : الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص٣٦٩.
[٩] : انظر شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات "الشام"، دار المعارف، مصر، ١٩٩٠م، ص٢٢٣.

"وكانت فروسية أبي فراس مدعاة لفخر ابن عمه سيف الدولة، فقد كان يبعثه قائدًا لجنده في الحروب الداخلية لرد الثائرين عليه، أو في حروبه ضدّ الروم، ويظهر أن شجاعة أبي فراس وانتصاره في الغزوات جعلته يعتمد عليه في مثل هذه الأمور، فلقد كان الساعد الذي يعتمد عليه سيف الدولة في حروبه، ويظهر أنَّ الحرب عنده أصبحت عادة أثيرة لديه"[١٠].

يقول عنه الثعالبي: كان فرد دهره، وشمس عصره، أدبًا وفضلًا، وكرمًا ونُبلًا، ومجدًا وبلاغة وبراعة، وفروسية وشجاعة، وشعره مشهور بين الحسن والجودة، والسُّهولة والجزالة، والعُذوبة والفخامة، والحلاوة والمتانة، ومعه لواء الطبع، وسمة الظُّرف، وعزة الملك... وكان المتنبي يشهد له بالتَّقدم والتبريز، ويتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته، ولا يجترأ على مجاراته.[١١]

وقال عنه ابن شرف القيرواني: فارس هذا الميدان إن شِئت ضربًا وطعنًا، أو شئت لفظًا ومعنى، ملك زمانًا وملك أمانًا، وكان أشعر الناس في المملكة، وأشعرهم في ذل الملَكة.[١٢] فكان أبو فراس شاعر مطبوع مشبوب العاطفة، يقول الشعر إرضاء لنفسه، ولم يتخذ الشعر حرفة، وشعره وجداني خالص.[١٣]

وأبو فراس الفارس الشاعر الأديب لم تكن إمارة الشعر هدفه ومبتغاه، وإنما القيادة والزعامة السياسية كانت فلكه الذي يدور فيه.. وجاء الشعر مُكمّلا في هذا الفلك تابعًا لرغبة الزعامة في نفس الشاعر. فيبدو أن أبا فراس كان دائمًا مُحِبًّا للسبق والتفرد، فكان فارس بني حمدان، وقائد جيش سيف الدولة، وكان يصبو بشعره – من وقت لآخر – إلى التفرد والزعامة الشعرية، فكان يدخل في مناظرات شعرية مع بعض شعراء البلاط الحمداني، وتروي لنا بعض كتب الأدب والنقد بعض المحاورات التي دارت بينه وبين المتنبي، وكيف أظهرت تلك المحاورات – إن صحّت – ملكة شعرية فريدة، واطّلاعًا واسعًا على تراث العربية.

---

(١٠) : ماجدولين بسيسو: شعر أبي فراس الحمداني، ص ٥٦.
(١١) : أبو منصور الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ج٥٧/١.
(١٢) : ابن شرف القيرواني: أعلام الكلام، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٢٦م، ص ٢٥.
(١٣) : عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي "الأعصر العباسية"، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م، ج٤٩٦/٢.

يقول أبو فراس:[١٤]

سلِ الدَّهرَ عنِّي هل خضعْتُ لغيره وهل راعني أصلالُه وأراقمُه
وهل موضعٌ في الأرضِ ما جُبتُ أرضه ولا وطِئتهُ من بعيري مناسمُه
وما صحبتني قطّ إلا مطيَّتي وعضبُ حُسامٍ مخذمُ الحدِّ صارمُه
وإنَّ انفرادِ المرءِ في كُلِّ مشهدٍ لخير من استصحابِ من لا يُلائمُه

فطموح الشاعر لا يُدانيه طموح، ورغبة الشاعر في الزعامة واضحة جليَّة، ويبدو أنَّ طموح أبي فراس كان واضحًا للجميع – وفي مقدمتهم سيف الدولة – غير أنَّ الشاعر لم يلتفت لهذا الأمر لأنه يرى أنَّ هذه شخصيته، وهذه الشمائل التي تربَّى عليها، فهو من هو من بني حمدان. فكان يختال على الفرسان ويتغنى بفروسيته وأنه حامي عشيرته. يقول:[١٥]

منعتُ حِمى قومِي وسُدتُ عشيرتي وقلَّدتُ أهلي غُرَّ هَذي القلائدِ
خلائقُ لا يُوجدنَ في كلِّ ماجدٍ ولكنَّها في الماجدِ ابن الماجدِ

لكن القدر لم يمهل الفارس الشاعر طويلا، فرماه باختبار قاسٍ وهو في ريعان الشباب، فتعرض الشاعر لمحنة قاسية مريرة، " ففي سنة ٣٥١هـ كان عائدًا إلى منبج من الصيد مع غلمانه، وإذا بكتيبة من الروم تباغته فيدافع إلى أن تُثخنه الجراح، ويصيبه سهم في فخذه ويبقى نصله فيه، ويُؤسر البطل المغوار، ويُسجن في خُرشنة، ثم ينتقل إلى القسطنطينية، ويذوق ذُل الأسر وألم الفُراق.[١٦]

يقول أبو فراس:[١٧]

أُسرتُ وما صَحبي بعُزلٍ لدَى الوَغَى ولا فرَسي مُهرٌ، ولا ربّه غَمْرُ

[١٤] : ديوان أبي فراس الحمداني: ٣٨١ .
[١٥] : ديوان ابي فراس الحمداني: ١٠٢.
[١٦] : انظر شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، ص ٢٢٣ – ٢٢٤، وانظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م ج٨/٥٤٥. وابن مسكويه: تجارب الأمم، مصر، ١٩١٥م.
[١٧] : الديوان: ص ١٨١- ١٨٢.

ولكـنْ إذا حُـمَّ القـضاءُ علـى امـرئٍ فلـيس لـه بَـرٌّ يَقيـهِ، ولا بَحْـرُ
وقـال أُصـيحابي: الفِـرارُ أو الـرَّدى؟ فقلـتُ: همـا أمـرانِ؛ أحلاهمـا مُـرُّ
ولكنَّنـي أمـضي لمـا لا يَعِيبُنـي، وحـسبُك مـن أمـرينِ خيرهمـا الأسْـرُ
يقولـون لـي: بِعـت الـسَّلامة بـالرَّدى فقلـتُ: أمـا واللهِ، مـا نـالني خُـسرُ

أسباب الشكوى في شعر أبي فراس

(١): الشاعر وتغيّر حاله

تحالفت الأيام على الشاعر، وتوالت عليه المحن منذ صغره؛ بداية بموت أبيه وصولا إلى أسره وهو في ريعان شبابه. كان الشاعر في مرحلة سابقة لأسره مباشرة أميرًا على منبج، وقائدًا لجيش سيف الدولة، يخوض المعارك في وجه جيوش الروم لفترات طويلة، وكان ساعد سيف الدولة في مواجهة القبائل المتمردة، فكان حال الشاعر ما بين ضرب وطعنٍ وقيادة وإمارةٍ وشعرٍ، وكلها في بلاط من العزِّ والعُروبة والكبرياء.

ومّنْ كان في مثل حال أبي فراس من الإمارة والشجاعة والبيان، لم يكن من الميسور عليه أنْ يقضي تلك الفترة الرهيبة الحزينة من سنى حياته دون أن يشدو كالطائر الأسير يرسل أغاريده فتقع في أسماع الروم وقوع الصواعق، ثم تحملها الركبان فتقع في أسماع أهله وعشيرته وقوع الألم والحسرة، وإنّ قصائده التي أنشدها في الأسر وسُمِّيت – بالروميَّات – لتعد آية من آيات الروعة والجمال المقرون بالعاطفة المشبوبة والحنين الملح".[١٨]

يقول أبو فراس:[١٩]

إنَّ فـــــي الأســـــرِ لـــــصبًّا دمعُـــــه فـــــي الخـــــدِّ صَـــــبُّ
هـــــو فـــــي الـــــرّوم مُقـــــيمٌ ولـــــه فـــــي الـــــشَّامِ قلـــــبُ
مُـــــستجدًّا لـــــم يُـــــصادِف عِوضًـــــا ممـــــن يُحِـــــبُّ

[١٨] : الشكعة: فنون الشعر، ص ٢٥٤.
[١٩] : الديوان: ص ٣٩.

أين الأهل والعشيرة، أين الإمارة والجيش، أين من كان يدافع عنهم الشاعر، ويبذل النفس في سبيل حمايتهم، والدفاع عنهم وعن أعراضهم؟! استيقظ الشاعر على واقعه الأليم. فلا صديق يواسي، ولا أمير يُفادي، بل سجن مُهين، وأَسْر ذليل، لقد تغيَّرت الأيام على الشاعر، وتغيَّرت معها الضمائر:(٢٠)

وما أخُوكَ الذي يدنو به نسَبٌ لكن أخوك الذي تصفُو ضمائِرُه

كيف لفارس أمير مثل أبي فراس أن يتحمل السر وقد تغيّر به الحال ما بين عشية وضحاها، من أمير إلى أسير ذليل في قبضة أعدائه لا حول له ولا قوة؟! "إنّ المعنى الداخلي لكلمة أسر أبلغ مضمونًا وأقوى إفصاحًا في بيان حقيقة الكلمة، وما يدور حولها من مشاعر وأحاسيس، وما يكمن فيها من ضنكٍ وبؤس ومآس يدل على ذلك هذه الأفكار والمخاوف التي كانت تحوم في نفس العربي إذا لاح له شبح الأسر حتى نرى بعضهم يفضل العار أو الموت عليه لما فيه من محنة معذبة وبلاء فادح، ولعلمه بما فيه من مهانة تمحق الكرامة وتجعل الأعز الذل، وتُفقد المرء قدره الإنساني"(٢١).

يقول أبو فراس:(٢٢)

ومُعتكفٍ على حلبٍ بكيٍّ يقوتُ عِطاشَ آمالٍ غزارِ
يقول لي: انتظرْ فرجًا؛ ومن لي بأنّ الموتَ ينتظرُ انتظاري؟

(٢): تأخّر سيف الدولة في فدائه

اختلفت الروايات في أسباب تأخر سيف الدولة في فداء أبي فراس الحمداني من أسر الروم، خاصة بعد الكثير من رسائل الشاعر للأمير الحمداني ثم توسُّل أمّه وذهابها إلى سيف الدولة بحلب لعل قلبه يرق لحال الأم، ولوعة القلب على ولدها، ولكن دون جدوى. ويبدو أن سيف الدولة

(٢٠) : الديوان: ص ١٤٨.
(٢١) : البرزة: الأسر والسجن في شعر العرب، ص ٢١.
(٢٢) : الديوان: ص ١٩٠.

كانت لديه أسباب قوية هي التي أدّت إلى هذا التأخر في الفداء الذي تمّ بعد أربع سنوات من عُمر الشاعر قضاها وحيدًا أسيرًا ذليلا في سجون الرُّوم، حتى فداه سيف الدولة هو ومن معه من أسرى المسلمين.

ويظهر أنّ أبا فراس في أول عهده بالأسر، كان يعتقد أنّ قومه – وغزو الروم لبلادهم لا يكاد ينقطع، وأبو فراس بينهم مشهور بالبسالة والقوة – لا يلبثون أن يبذلوا ما يطلبه الروم من فداء لبطلهم، حتى ينتفعوا بمواهبه ونبوغه، وقد كان أبو فراس معجبًا بهذه المواهب، مؤمنًا بأنه أُوتي منها ما لم يؤت سواه، مقتنعًا بأنّ غيره لن يسدّ فراغًا خلاه، ولن يملأ المكان الذي كان يشغله، وإذا كان الأمر كذلك، فلابد أنّ قومه سيسرعون إلى فدائه من الأسر".[٢٣]

قال أبو فراس:[٢٤]

سيذكُرُني قومي إذا جدّ جدُّهم وفي الليلةِ الظلماءِ يُفتقدُ البدرُ
فإنْ عِشتُ فالطَّعنُ الذي يعرِفُونه وتلك القَنا والبيضُ والضُّمّرُ الشُّقرُ
وإنْ مُتُّ فالإنسانُ لابُدّ ميّتٌ وإنْ طالت الأيام، وانفسحَ العمرُ
ولوْ سدَّ غيري ما سددتُ اكتفوا به، وما كان يغلو التّبرُ لو نفقَ الصُّفرُ

والشاعر في كثير من المناسبات لا يتردد في أن يُصرّح بأنّ سيف الدولة أبطأ في فدائه، ولا يعلم الشاعر سببًا لذلك، ويتساءل مع نفسه ما سبب هذا التأخر في الفداء وهو مَن هو؟! فكم دافع عن الثغور الإسلامية، وحمى مُلك الأمير. فعلى سيف الدولة أن يُعجل في فدائه فذلك خير له وللإسلام.

يقول:[٢٥]

وأبطأ عنِّي، والمنايا سريعةٌ، وللموتِ ظُفرٌ قد أطلّ ونابُ

(٢٣) : أحمد بدوي: شاعر بني حمدان، ص ٦٣.
(٢٤) : الديوان: ١٨٢.
(٢٥) : الديوان: ٣٤-٣٥.

فـــإنْ لـــم يكُـــن وُدٌّ قـــديمٌ نَعُـــدُّه ولا نـــسبٌ بـــين الرجـــالِ قُـــرابُ
فـــأحوطَ للإســـلامِ أنْ لا يُـــضيعَني لـــــيُعلمَ أيّ الحـــــالتين سَـــــرابُ

وهناك من يرى أن سبب تأخر سيف الدولة في فداء أبي فراس يرجع إلى "أنّ صاحب حلب لو أراد تعجيل افتداء أبي فراس لأطلق سراح ابن أخت ملك الروم. ولكنه آثر التأخير لغرض في نفسه، ولعله أحسّ من الشاعر الفارس طمعًا في المُلك، وتريّب في دلاله وزهوه بنفسه وشجاعته، فرأى أن يصرفه عن وجهه زمنًا، ويمدّ في أسره، ليُضعف عزائمه، ويُريه أنّ الدولة غنيّة عنه، وأنّ النصر يتم بدونه، ففعل ما فعل حتى حان وقت الفداء فافتداه."[٢٦] خاصة وأن أبا فراس كان يُكثر من الزهو بنفسه في مقام مديحه لسيف الدولة أو عتابه. فنراه يقول:[٢٧]

يـا ضـاربَ الجيشِ بـي فـي وسطِ مفرقـهِ لقـد ضـربتَ بعـين الـصّارم العَـضبِ
حتّـــى تقـــول لـــك الأعـــداءُ راغمـــةً أضـحى ابـن عمّـك هـذا فـارسَ العـربِ

غير أنّ كثيرًا من كُتب التاريخ تذكر عن سيف الدولة "أنه كان كالخارج من الموت، حلب مهدّمة، ورجاله منفكون عنه، وبعضهم قُتل أو أُسر، وماله الذي كان في بيته في حلب – الحلبة – منهوب، حمله البيزنطيون إلى القسطنطينية، وغلمانه شامسون يتربصون به الوثوب عليه، والرومان ظافرون ظفرًا لم يحلموا بمثله منذ الفتح الإسلامي. فلم يعد لسيف الدولة عندهم ذلك المجد الحديدي، وتلك الصّولة التي كانت ترهبهم. كل هذه الأمور لم يعرض إلى واحدة منها أحد مؤرخي العرب".[٢٨]

(٣):غيابه عن أمّه ثم رحيلها

قُتل والد الشاعر وهو طفل صغير لم يتجاوز عمره أربع سنوات، ومنذ ذلك الحين كانت أمّه من ترعاه وتسهر على تعليمه وتربيته، وينال منها كل عطف وحنان ورعاية حُرم منها بموت الوالد، وقد وقفت حياتها على خدمته ورعايته، واهتمت بتربيته وتعليمه، فأحضرت له معلمين في الدين

[٢٦] : بطرس البستاني: أدباء العرب في الأعصر العباسية، دار مارون عبون، بيروت، ص ٣٦٦.
[٢٧] : الديوان: ٦٠.
[٢٨] : زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب، ص ٣٠٤. وانظر في صفات سيف الدولة: محمد كرد، خطط الشام، ١٩٠-١٩٥.

واللغة العربية، كما تعلم الرماية والفروسية، فكانت أمّه حريصة على إعداده إعداد الأمراء والقادة منذ الصغر.

ظهر أثر هذه التربية والثقافة في شعر أبي فراس الحمداني، وظلت الأم وحدها تهتم به حتى بلغ سن الثالثة عشرة، وبعدها انتقل إلى حلب حتى صار في رعاية ابن عمه سيف الدولة وزوج أخته، وقد ولاه سيف الدولة ولاية منبج وعمره ستة عشر عامًا، وعاش الشاعر وأمه في منبج حتى أسر، وترك هذه الأم الثّكلى على ولدها وفلذة كبدها، وقد تقدم بها العمر، ولم يعد قلبها يتحمل ما أصابه.

كان فُراق الأم، وقلقه عليها هو جُلّ ما يشغل الشاعر، وما يصلها من أخباره وهو في الأسر مكبّلا، بعد أن كان يرفل في ثياب العزّ والمجد، فكم حاول الشاعر أن يُواسي أُمّه، فيلبس لِباس الصبر وهو يخاطبها من أسره، بينما قلبه يقطرُ دمًا لفراقها ومرضها. يقول:[٢٩]

يـــــا أُمّتَـــــا! لا تحزنـــــي، وثِقِـــــي بفـــــضلِ اللهِ فِيّـــــه!
يـــــا أُمّتـــــا لا تيأســـــي؛ للهِ ألطـــــافٌ خَفيّـــــه
كـــــم حـــــادثٍ عنّـــــا جـــــلاه وكـــــم كَفانـــــا مـــــن بليّـــــه
أُوصِـــــيك بالـــــصّبر الجميـــــل! فإنّـــــه خيـــــرُ الوَصـــــيّه!

وتتحامل الأمّ على نفسها ومرضها، وتتغاضى عن كبريائها ومكانتها، وتسافر إلى حلب لتستعطف سيف الدولة في فداء أبي فراس، لعلها تجد عنده قلبًا يرق لحالها! ولكن دون جدوى، وتعود خائبة الرجاء، ويزداد عليها المرض لشدة حزنها على ولدها، وقلقها عليه، ويبلغ الشاعرَ الخبرُ، فتقوى سطوة الأسر قوة، وتزداد القيود ضيقًا، ويصبح الليل أكثر طولا، ويظفر قلبه ظفرات من الشكوى ملؤها الحزن والألم والحسرة التي تعتصر قلب الشاعر، بعدما أصاب أُمّه من خيبة أمل تَبِعها مذلةٌ وحسرة ومرض.

[٢٩] : الديوان: ٣٥٤.

فقد "بلغ أبا فراس أن والدته قصدت حضرت سيف الدولة من منبج تكلمه في المفاداة، وتتضرع إليه، فلم يكن عنده ما رجت من حُسن الإيجاب، ووافق ذلك عنفًا من الدمستق بأبي فراس ومَن معه من الأسرى، وزيادة في إرهاقهم".(٣٠)

يقول أبو فراس:(٣١)

يـــا حـــسرةً مـــا أكـــادُ أحمِلُهـــا ... آخِرُهـــــا مُـــــزعجٌ، وأوّلهـــــا!
عَليلـــــةٌ بالـــــشآمِ مُفـــــردةٌ، ... بـــاتَ، بأيـــدي العِـــدى، مُعلِّلهـــا
تُمـــسك أحـــشاءَها، علـــى حُـــرَقٍ ... تُطفئُهـــا، والهُمـــومُ تُـــشعِلُها
يـــا أُمتـــا، هـــذهِ موارِدُنـــا ... نُعَلُّهـــا تـــارةً؛ ونُنهَلُهـــا
ليـــست تنـــالُ القيـــودُ مـــن قَمـــي، ... وفـــي اتبـــاعي رضـــاكَ، أحمِلُهـــا

وتزداد آلام الشاعر وشكواه وهو في أسره حين بلغه موت أمه "مما ضاعف لوعته وأحزانه، فأخذ يكرر مخاطبة أُمّه ومناجاتها بأم الأسير وكأنما أصابه مسٌّ لفداحة رزئه حين حلَّ بها الموت وهو بعيد عنها، وهو يكرر ندبه ليشركك معه في حزنه بهذا الخطاب المختار".(٣٢)

يقول الشاعر:(٣٣)

أيـــا أُمّ الأســـير، ســـقاكِ غيـــث، ... بكُـــرهٍ منـــكِ، مـــا لقـــي الأســـيرُ!
أيـــا أُمّ الأســـير، ســـقاكِ غيـــث، ... تحيّـــرَ، لا يُقـــيم ولا يـــسير!
أيـــا أُمّ الأســـير، ســـقاكِ غيـــث، ... إلـــى مَـــن بالفـــدا يـــأتي البـــشيرُ؟
أيـــا أُمّ الأســـير، لمـــن تُربّـــي، ... وقـــد مُـــتِّ، الـــذّوائب والـــشّعورُ؟

(٣٠) : الثعالبي: يتيمة الدهر، ج٩٩/١.
(٣١) : الديوان: ٢٧١.
(٣٢) : مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ٢٩٩.
(٣٣) : الديوان: ١٨٣.

اتجاهات الشكوى في شعر أبي فراس

(١): عتاب سيف الدولة

كان أبو فراس في بداية أسرِه يُصدّق حديث النفس بأنّه فارس بني حمدان، وأنّ قومه لن يتركوه عند عدوِّهم الروم، وكان على ثقة من إسراع سيف الدولة في فدائه، "ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السُّفن" تأخر الفداء فكان سببًا للشكوى والعتاب. يقول لسيف الدولة:[٣٤]

أمِـنْ بعـدِ بـذلِ الـنَّفسِ فيمـا تُريـدُه ... أُثـاب بمُـرِّ العَتـبِ حـين أُثـابُ؟
فليتـك تحلـو، والحيـاة مريـرةٌ، ... وليتـك ترضـى والأنـامُ غِـضابُ
وليـت الـذي بينِـي وبينـك عـامرٌ ... وبينـي وبـين العـالمينَ خَـرابُ

والعتاب بينه وبين سيف الدولة كثيرًا ما كان يتحوّل إلى مواجهة، حين يتعامل الأمير سيف الدولة مع أبي فراس كشخصٍ عادي من رعاياه، وهنا يثور الشاعر ويتحوّل العتاب الهادئ – الذي تعوّدنا عليه في شعر أبي فراس تجاه سيف الدولة – إلى عتاب شديد ومواجهة، مثلما حدث بينهما حين تأخر سيف الدولة في فداء الشاعر وطلب أبو فراس من سيف الدولة أن يسمح له بمخاطبة أهل خُرسان لفدائه، وكان ردّ سيف الدولة: ومن يعرفُك في خُرسان؟!

"لقد كان هذا الجواب سبب ثورة عنيفة في نفس أبي فراس، فهو يقبل كل شيء حتّى الأسر، بنفس راضية، ولكنه لا يقبل أن يُرمى بالخمول، فأرسل إلى ابن عمّه قصيدة ثائرة، يعتب عليه فيها عتابًا صريحًا، ويدفع عن نفسه تهمة الخمول".[٣٥] يقول:

أتُنكـرُ أنِّـي شـكوتُ الزّمـانَ، ... وأنِّـي عتبتُـك فـيمَن عتـبْ!
ومِـن أيـن يُنكِرُنـي الأبعـدُون ... أمِـن نقـصِ جـدٍّ أم مـن نقـصِ أبْ؟!
ألـستُ وإيّـاك مـن أُسـرَةٍ، ... وبينـي وبينـك فـوق النَّسـبْ!
فلمّـا بعُـدتُ بـدَتْ جفـوةٌ، ... ولاحَ مـن الأمـرِ مـا لا أُحِـبْ

---

[٣٤] : الديوان: ٣٥.
[٣٥] : أحمد بدوي: فارس بني حمدان، ص٦٢، وانظر الثعالبي: يتيمة الدهر، ج٥٧/١، وانظر الديوان: ٣٨-٣٩.

فلـــو لـــم أكُـــون بـــك ذا خِبـــرةٍ لقلـــتُ: صـــديقُك مَـــن لـــم يغِـــبْ

(٢): شكوى الحُساد من الأهل والأصدقاء

أبو فراس الحمداني الأمير الشاعر من أسرة عريقة، وله شهرة واسعة في البلاط الحمداني، ولم يسلم معه الأمر من حُساد يكيدون للشاعر عند سيف الدولة، وكان أبو فراس لا يتردد وأن يهاجم كل من يحاول أن ينال منه من قريب أو من بعيد مثلما حدث مع المتنبي وفي حضرة سيف الدولة.(٣٦)

يقول أبو فراس:

بمـــن يثـــقُ الإنـــسانُ فيمـــا ينُوبُـــه ومِـــن أيـــن للحُـــرّ الكـــريمِ صِـــحابُ؟
وقـــد صـــارَ هـــذا النَّـــاسُ إلّا أقلَّهـــم ذِئابًـــا علـــى أجـــسادِهنّ ثيـــابُ
تغابيـــتُ عـــن قـــومي فظنُّـــوا غبـــاوتي بمَفْـــرِقِ أغبانَـــا حـــصىً وتُـــرابُ
ولـــو عرفـــوني حـــقّ معرفتـــي بهـــم، إذًا علِمـــوا أنّـــي شَـــهِدتُ وغـــابوا
ومـــا كُـــلّ فعّـــال يُجـــازى بفعلـــه؛ ولا كـــلّ قـــوّالٍ لـــديّ يُجـــابُ

ومما لا شك في أنّ بعض أصدقاء أبي فراس قد غدر به، وبعض حُساده قد شمت فيه؛ فمن المعقول أن يكون هؤلاء وأولئك قد انتهزوا فرصة أسره، وأوغروا صدر الأمير عليه، ولا أدري بم؟ ولا نصيب هذه التّهمة من الصِّحة".(٣٧)

يقول أبو فراس:(٣٨)

تمنيْـــتُم أنْ تفقـــدوني؛ وإنّمـــا تمنّيـــتُم أنْ تفقـــدُوا العِـــزّ أصـــيَدا
يـــودّون أنْ لا يُبـــصِروني، ســـفاهةً، ولـــو غِبـــتُ عـــن أمـــرٍ تـــركتُهم سُـــدَى

ويقول أيضًا ذاكرًا حُسّاده من أهله:(٣٩)

(٣٦) : انظر البديعي: الصُبح المُنبي، ٨٨-٩١. وانظر الديوان: ٣٢.
(٣٧) : أحمد بدوي: شاعر بني حمدان، ٧٣.
(٣٨) : الديوان: ١٠٢ – ١٠٣.
(٣٩) : الديوان: ٩٩ – ١٠٠.

وما كلّ أنصاري من النّاس ناصِري ولا كلّ أعضادِي من الناسِ عاضدِي
وهل نافعي إنْ عضّني الدّهرُ مُفردًا إذا كان لي قومٌ طِوال السواعِدِ؟
وهل أنا مسرُورٌ بقرب أقاربي إذا كان لي منهمْ قُلوبُ الأباعدِ

(٣): شكوى الدهر وحوار الطبيعة

إن أبا فراس " حين ينشد في الدهريات لا يذهب مذهب غيره من الشعراء الذين يذمّون الدهر ويلعنونه لأنه كان صادق الإيمان عميق العقيدة؛ وإنما كان يشكو من دهره في حوار يتخيله قد جرى بينه وبين حمامة أو نجوى يبثها إلى الليل، فمن ذلك رُميَّته التي أنشدها، وقد سمع حمامة تنوح بقربه على شجرة عالية، فضمّن قصيدته تلك معاني من الشكوى الأليمة والبكاء المكتوم في إطار من الموسيقى العذبة الخلابة"[٤٠].

يقول أبو فراس:[٤١]

أقولُ وقد ناحتْ بقُربي حمامةٌ: أيا جارتا، هل تشعُرين بحالي؟
أيا جارتا، ما أنْصف الدهر بيننا! تعالي أُقاسِمْكِ الهُمومَ، تعالي!
تعالي تريْ رُوحًا لديّ ضعيفة، تردّدُ في جسمٍ يُعذّبُ بالِ!
أيضحك مأسورٌ، وتبكي طليقةٌ، ويسكتُ محزُونٌ، ويندبُ سالِ؟

إنّه اتحاد مع الطبيعة حينما حاول الشاعر أن يبث شكواه من الدهر وما حلّ به من نكبات ألقت به في ظُلمة الأسر بعد عزٍّ ومجد.. فصارت الطبيعة وما بها من طير وليل؛ إنسان يحاوره ويقارن بين حاله وحال تلك الحمامة الحزينة. إنه إسقاط فني يبث الشاعر الفارس خلاله آلامه التي تعصف به.

وحين يشدو الشاعر بشكواه تجاه الدهر تجد هذا الإطار الفكري الذي أحاط بالشاعر، فصار شعره حكمة نافذة، أثقلتها الأيام والتجارب، وكأننا نسمع لشاعر عمره تجاوز الستين عامًا بحكمته،

(٤٠) : مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص٣٧١.
(٤١) : الديوان: ٢٦٧.

وليس ابن الثلاثين عامًا! فقد أثقلته الهموم والتجارب حتى صار شعره في شكوى الدهر حكمة وبيانًا.

يقول:(٤٢)

وخَبــرتُ هــذا الــدهرَ خِبــرة ناقــدٍ ... حتـــى أنِـــستُ بخيـــره وبـــشرّه
لا أشـــتري بعـــد التجـــارب صـــاحِبًا ... إلا وددتُ بـــــأنني لـــــم أشـــــرِه
والمـــرءُ لـــيس ببـــالغٍ فـــي أرضـــه ... كالـــصَّقر لـــيس بـــصائدٍ فـــي وكـــرِه

(٤): الشكوى وفُراق الأحبّة

فُراق الأحبة من أعظم الأمور التي تُحزن القلوبَ، وتجعل الألسنة تشكو الفراق، وتتذكر صُحبتهم وعشرتهم. ووقع الفراق على السجين أو الأسير أو الغائب أشدّ ألمًا، وأوقع أثرًا، وقد يكون الفراق بموت عزيز أو غيابه. وكان لموت أُمّه أشد الأثر في تحطيم معنوياته، فكان موتها من المصائب الكبرى التي حلّت بالشاعر وهو في أسر الروم في بلاد بعيدة، ففاضت شكواه حزنًا وألمًا على فراقها وهي وحيدة مريضة تخلى عنها الأهل والأصحاب "وإنك لحزين معه على أمٍّ اشتاقت إلى ولدها الأسير فاستحال الرجوع، وعزّ اللقاء فماتت شوقًا إليه وحزنًا عليه".(٤٣)

يقول الشاعر وهو يشكو فراق الأم:(٤٤)

إذا ابنُـــك ســـارَ فـــي بَـــرٍّ وبحـــرٍ، ... بكُـــرهٍ منـــكِ، مـــا لقـــيَ الأســـيرُ!
حـــرامٌ أنْ يبيـــتَ قريـــرَ عـــينٍ! ... ولـــؤمٌ أنْ يُلِـــمّ بـــه الـــسّرور!
أيـــا أُمّـــاه، كـــم هـــمٍّ طويـــلٍ ... مـضى بـكِ لـم يكُـن منـه نـصير
أيـــا أُمّـــاه، كـــم ســـرٍّ مـــصونٍ ... بقلبِـــكِ، مـــات لـــيس لـــه ظُهـــور
أيـــا أُمّـــاه، كـــم بُـــشرى بقُربـــي ... أتتـــكِ، ودُونهـــا الأجـــل القـــصير

(٤٢) : الديوان: ١٦٣.
(٤٣) : مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص٢٩٩.
(٤٤) : الديوان: ١٨٣ - ١٨٤.

وكان الشاعر في بعض قصائده وهو في الأسر يشدو بشعره ذاكرًا فراق الأحبّة وغيابه عن أخيه أبي الهيجاء، ويُعرب عن شوقه إليه فيشكو إلى الله فراق الأحبة وغيابهم عنهم في ظلمات الأسر. . يقول:[٤٥]

تُقـــرّ دُمـــوعي بـــشوقي إليـــكَ، ويـــشهدُ قلبـــي بطـــولِ الكَـــرَبْ
وإنّـــي لمجتهـــدٌ فـــي الجحـــود، ولكـــنّ نفـــسي تـــأبى الكـــذبْ
وإنّـــي عليـــك لجـــاري الـــدموعِ؛ وإنّـــي عليـــك لـــصبٌّ وصِـــبْ
ومـــا كُنـــت أُبقـــي علـــى مُهجتـــي لـــو انّـــي انتهيـــتُ إلـــى مـــا يجـــبْ

(٥): الشكوى وقناع الغزل

أبو فراس "أمير عربي، عاش في ترف، وكان يستطيع أن يعيش حياته كما عاش امرؤ القيس أو عمر بن أبي ربيعة، ولكنّ الأمجاد شغلته كما شغلت المتنبي، بل إن الحب فيما نرى أضحى شارة للذل والعبودية، يشين صاحبه، وأصبح الدمع موضع النقيصة عند الرجل."[٤٦]
يقول أبو فراس:[٤٧]

أركَ عـصيّ الـدّمعِ شـيمتُكَ الـصّبرُ، أمـا للهـوى نهْـيٌ عليـكَ ولا أمـرُ؟
بلـى، أنـا مُـشتاقٌ، وعنـدي لوعـةٌ، ولكـنّ مثلـي لا يُـذاعُ لـه سـرُّ!
إذا الليـلُ أضـواني بـسطتُ يـدَ الهـوى وأذللْـتُ دمعًـا مـن خلائِقـه الكِبـرُ

والقصيدة السابقة بها مقدمة غزلية بلغت سبعة وعشرين بيتًا "دار فيها عتاب شيق بين الشاعر وغادته، ليس هو في حقيقته إلا غزلًا رمزيًّا ظاهره الشكوى واللوعة، والأشواق الصادرة عن حرمان الوصل، وهجران الحبيب وصدوده، وباطنه الشكوى من انصراف ابن عمّه عنه وأصدقائه وإخوانه، ومن أوجاع الأسر وهوانه"[٤٨].

---

[٤٥] : الديوان: ٢٨.
[٤٦] : لجنة من أدباء الأقطار: الغزل؛ فنون الأدب العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٨٠م، ص ٥٥.
[٤٧] : الديوان: ١٧٧.
[٤٨] : البرزة: الأسر والسجن، ص ٥٦٢.

وهناك من يرى أنّ أبا فراس يتخذ من الغزل ستارًا ليقول ما في نفسه لسيف الدولة، لا خوف منه – وقد كان يصرّح له بكل ما في نفسه – ولكن تلوينًا وإظهارًا لبراعته، والغزل تعبير عن عاطفة، فكان الأولى به أن يُعبّر فيه وعن طريقه بما يعتلج في نفسه من آثار نفسية.[٤٩]

يقول له طال ظلمك واحتمالي:[٥٠]

صبَرتُ على اختيارك واضطراري ... وقلّ، مع الهوى، فيك انتصاري

وكان يعاف حملَ الضّيمِ قلبي ... فقرّ على تحمّله قراري

فديتك، طال ظلمك واحتمالي، ... كما كثُرتْ ذُنوبك واغتفاري

إنها شكوى ظاهرة من خلال إسقاط غزلي، أظهر الشاعر خلاله مقدرة شعرية فريدة في المزج بين عاطفة صادقة تجاه من يُعاتبه، ولكن الشاعر لا يستطيع أن يواجه سيف الدولة بظلمه له، وكما أن الشاعر يتجاوز عن ظلمه أكثر من مرّة، فجاءت الشكوى في إطار قناع غزلي يحاول الشاعر من خلاله الإبقاء على خيط رفيع بين وبين سيف الدولة، فهل يحافظ سيف الدولة على هذا الخيط وهذا العهد؟

يقول أبو فراس:[٥١]

حفِظتُ وضيّعْتِ المودةَ بيننا ... وأحسنَ، من بعض الوفاءِ لكِ، الغدرُ

تروغ إلى الواشين فيّ، وإنّ لي ... لأذنًا بها، عن كُلّ واشيةٍ، وقرُ

إنّ فكرة حفظ الوعود بين الشاعر والحبيبة وتضيعها تتكرر في غزل الشاعر، فهو يحفظها وهي تضيعها، بل أكثر من ذلك فهي تستمع إلى الواشين في حق الشاعر. إنه إسقاط واضح وصريح يشتكي خلاله الشاعر سيف الدولة، واستماعه إلى الواشين والحساد، ونسي الأمير كم يحبه الشاعر[٥٢].

[٤٩] : انظر ماجدولين بسيسو: شعر أبي فراس الحمداني، ص ١٩٨.
[٥٠] : الديوان: ١٨٨.
[٥١] : الديوان: ١٧٨.
[٥٢] : انظر الشكعة: فنون الشعر، ص٢٦٥.

فالشاعر يرسم صورة دقيقة غاية في الذاتية والواقعية، وهو يُسقط من خلالها كل أبعاد واقعه النفسي كما عاشه في عالمه الجديد بعيدًا عن وطنه، فهو في حال لا يُحسد عليه، بعد أن كان الأمير الفارس، إذ تحوّل إلى الأسير المكبّل على غير توقع منه وانتظار".[٥٣]

والشاعر في غزله يلمح إلى ما حدث بينه وبين سيف الدولة حين أنكر على الشاعر مخاطبته لأهل خُرسان لافتدائه، فقال له: وهل يعرفك فيهم أحد؟! فنرى الشاعر يشتكي من هذا الإنكار، ويثور على رأي سيف الدولة مباشرة، وفي قصيدة "أراك عصيّ الدمع" أيضًا ما يؤكد على أن أبا فراس استخدم الغزل قناعًا للشكوى من سيف الدولة.. يقول:[٥٤]

تُـسائلني : مَـن أنـت؟ وهـي عليمـةٌ، وهـل بفتـىً مثلـي علـى حالـه نُكـرُ؟؟
فقلـتُ كمـا شـاءت وشـاء لهـا الهـوى: قتيلـك! قالـت: أيّهـم؟ فهُـمُ كثُـرُ

ثم يذكر بعدها في قصيدته ما يؤكد على أنه إسقاط غزلي للشكوى من ظلم سيف الدولة:

سـيذكُرني قـومي إذا جـدّ جـدّهم وفـي الليلـة الظلمـاء يُفتقـد البـدرُ

آثار الشكوى في شعر أبي فراس

(١): الحزن وصدمة الأسر

الحزن شعور إنساني ينتاب المرء في كثير من مراحل حياته كنتيجة طبيعية لفقد عزيز، أو فقدان الحرية، أو المرض أو خيانة الأصدقاء، وهناك أسباب أخرى، كلها تدور في فلك تغيّر الحالة النفسية للإنسان من فرح وسرور إلى حزن وألم.

والحزن الذي يصيب الإنسان يكون على درجات متفاوتة تبعًا للمصيبة التي حلَّت به، ومدى قدرته على التحمل، ومن هنا كان مصطلح الحزن هو ردّ الفعل الأول عند المصيبة، وحينما يزداد

[٥٣] : عبد الله التطاوي: القصيدة العباسية، دار غريب، القاهرة، د.ت، ص٣٣٣.
[٥٤] : الديوان: ١٧٩.

الأمر شيئًا فشيئًا يفقد الإنسان الأمل في انصراف هذا الحزن، فيتحول إلى يأس وفقدان للأمل، وعند استمرار الأمر تتحطم معنويات الشخص ويصبح في حالة انكسار ولا مبالاة بما يدور حوله.

أُسر أبو فراس فتحوّل سيفه إلى قيد، وقصره إلى سجن في بلاد الروم بعيدًا عن أهله وعشيرته، ومدار فخره وسلطانه، فحزن حزنًا شديدًا، والشاعر في أول أمره كان يظن أنّ الأمر لن يطول به في أسر الروم، وأنه فارس بني حمدان الذي لا تستغني عنه القبيلة.. يقول:(٥٥)

متـى تخلِـف الأيـام مثلـي لكـم فتـى ... طويـلَ نجـادِ السـيف رحـبَ المُقلَّـدِ؟
متـى تلِـدُ الأيـام مثلـي لكـم فتـىً ... شـديدًا علـى البأسـاء، غيـر مُلهَّـدِ؟
فـإنْ تفتـدوني تفتـدوا شـرفَ العُـلا، ... وأسـرعَ عـوّادٍ إليهـا، مُعـوّدِ
وإنْ تفتـدوني تفتـدوا لعُلاكـم ... فتًـى غيـر مـردُود اللـسانِ أو اليـد

فأرسل شعره في أول أسرِه ممزوجًا بالحزن مشحونًا بالفخر؛ فأبو فراس "يفتخر حين حلّ وأنّى وجِد، فهو يفتخر في بلاده، ويفتخر أسيرًا في بلاد الروم... فيفخر بجيشه وقومه، فإذا ما وقع أسيرًا كان ذلك أدعى إلى أنْ يُكثر من ذكر مفاخره، حتى يمسح ما بنفسه من إحساس بالذلة أو شعور بالهوان".(٥٦)

إنَّ شكوى الشاعر في أسره محملة بالحزن الذي لا يمكن أن يختفي وراء فخر الشاعر، فقد حاول جاهدًا في أول أمره أن يُظهر مدى صبره وجلَده حتى لا يشمت الشامتون، وينال من نفسه الأعداء.

يقول لأخيه مُعزّيًا نفسه:(٥٧)

تكـاثر لُـوَّمي علـى مـا أصـابني ... كـأن لـم تكـن إلا لأسـري النوائـبُ
وهـل يـدفعُ الإنـسان مـا هـو واقـعٌ، ... وهـل يعلـمُ الإنـسان مـا هـو كاسِـبُ؟
وهـل لقـضاء الله فـي النّـاس غالـبٌ، ... وهل من قضاء الله في الناس هارِبُ؟

(٥٥) : الديوان: ٩٦.
(٥٦) : الشكعة: فنون الشعر، ص٢٣٧.
(٥٧) : الديوان: ٤٤.

ولعل من الغريب أنّ شاعرًا يشكو ثم يطلب في نفس الوقت من غيره أن يتعزّى ويتصبّر، ولا شك أن أحوال أبي فراس وأخلاقه هي التي دعته إلى التجديد في هذا الفن، فهو مضطر أن يشكو حاله في أسره، ثم لا يلبث أن يشعر بعزّته وإمارته فيسرع إلى مزج شكواه بالفخر.[٥٨]

يقول لأمه وقد ثقلت عليه جراح الأسر:[٥٩]

مُـــصابي جليـــلٌ، والعـــزاءُ جميـــلُ، وظنّـــي بـــأنّ الله ســـوف يُـــديلُ
جـــراحٌ تحاماهـــا الأُســـاةُ، مخوفـــةٌ؛ وسُـــقمان: بـــادٍ، منهمـــا، ودخيـــلُ
وأســـرٌ أُقاســـيه، وليـــلٌ نجومـــه، أرى كـــلّ شـــيء غيـــرهن، يـــزول
أقلـــب طرفـــي لا أرى غيـــر صـــاحب يميـــل مـــع النَّعمـــاء حيـــث تميـــلُ
فيـــا أُمّتـــا لا تعـــدمي الـــصبر، إنّـــه إلـــى الخيـــر والـــنجح القريـــب رســـولُ
ويـــا أُمّتـــا لا تُخطئـــي الأجـــر! إنّـــه علـــى قـــدَرِ الـــصبر الجميـــل جزيـــلُ

ظل الشاعر طوال مدّة أسره، يرسل من الشعر ما يدل على قلب يذوب أسًى، ونفس تتحرق شوقًا إلى الحرية، وتحقيق ما ترجوه من الأحلام، وكان هذا الأسر أكبر باعث له على الشكوى وعتاب سيف الدولة، وقد كان يرق أحيانًا في عتابه ويستعطف، وحينًا يقسو ويشتد. والعتاب والاستعطاف ومن ثم القسوة حينًا آخر كلها أمور كانت في بداية الأسر، حينما كان الحزن وصدمة الأسر هي العامل المسيطر على نفسية الشاعر، فكل هذه الأمور ما زال خلفها أمل في فدائه من قِبل سيف الدولة، فيعمد الشاعر في عتابه إلى لون من المؤاخذة الرقيقة؛ التي يذكر فيها ماضي ودّهما، ويفصل فيها ما كان يربط بينهما من علاقات طيبة في شيء من التقريع الذي يعنف حينًا، ويرق حينًا.

يقول أبو فراس:[٦٠]

---

[٥٨] : انظر الشكعة : فنون الشعر، ص ٣٨١.
[٥٩] : الديوان: ٢٦٠ – ٢٦١.
[٦٠] : الديوان: ٤٠-٤١.

زمـــاني كُلّـــه غَـــضَبٌ وعَتـــبُ، وأنـــتَ علـــيّ والأيـــامُ إلـــبُ
وعـــيش العـــالمين لـــديكَ ســـهلٌ، وعيـــشي وحـــده بفِنـــاك صـــعبُ
أمثلـــي تُقبـــل القـــوال فيـــه؟ ومثلُـــك يـــستمِرُّ عليـــه كِـــذبُ؟
فقـــل مـــا شـــأت فـــيّ فلـــي لـــسان ملـــيٌّ بالثنـــاء عليـــك رطـــبُ
وعـــاملني بإنـــصافٍ وظُلـــمٍ، تجـــدني فـــي الجميـــع كمـــا تحـــبُّ

ويقول في عتاب سيف الدولة:[٦١]

تنكّـــر ســـيفُ الـــدين لمـــا عتِبتُـــه، وعـــرّضَ بـــي، تحـــت الكـــلامِ، وقرّعـــا
فقـــولا لـــه: مِـــن أصـــدق الـــودّ أنّنـــي جعلتُـــك ممـــا رابنـــي، الـــدهر، مفزَعـــا
ولـــو أنّنـــي أكننتُـــه فـــي جـــوانحي لأورق مـــا بـــين الـــضلوع وفرّعـــا
فـــلا تغتـــرر بالنـــاس! مـــا كـــل مـــن تـــرى أخـــوكَ إذا أوضَـــعتَ فـــي الأمـــر أوضـــعَا
ولا تقـــبلنّ القـــول مـــن كـــلّ قائـــلٍ! سأُرضـــيك مـــرأى لـــستُ أُرضـــيك مـــسمعَا

وقد أفسح سيف الدولة بقعوده عن فِكاك أبي فراس مجالا لقول الحاسدين الذين كانوا عند سيف الدولة يؤثرون بقاء أبي فراس في الأسر حتى لجأ إلى تهديد سيف الدولة بأنه سيلتجئ لأهل خرسان في فكاكه[٦٢].. يقول:[٦٣]

أتُنكـــرُ أنّـــي شـــكوتُ الزّمـــانَ، وأنّـــي عتبتُـــك فـــيمَن عتـــبْ!
ومِـــن أيـــن يُنكِرُنـــي الأبعـــدُون أمِـــن نقـــصِ جـــدٍّ أم مـــن نقـــصِ أبْ؟!
ألـــستُ وإيّـــاك مـــن أُســـرَةٍ، وبينـــي وبينـــك فـــوق النَّـــسبْ!
فلمّـــا بعُـــدتُ بـــدَتْ جفـــوةٌ، ولاحَ مـــن الأمـــرِ مـــا لا أُحِـــبْ
فلـــو لـــم أكُـــون بـــك ذا خِبـــرةٍ لقلـــتُ: صـــديقُك مَـــن لـــم يغِـــبْ

[٦١] : الديوان: ٢٠٧.
[٦٢] : زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب، ص٣٠٤، وانظر هامش نفس الصفحة في شأن الخرسانيين.
[٦٣] : الديوان: ٣٨ – ٣٩.

(٢): اليأس وتأخر الفداء

اليأس "موقف استسلامي، ونظرة تشاؤمية ضربت شباكها على أولئك الذين سقطوا فجأة من ذروة المجد إلى حضيض الهوان، فزعزعت ثقتهم بالحياة زعزاعًا شديدًا، وصاروا إلى يأس خاذل".[٦٤]

سقط أبو فراس من أعلى درجات المجد إلى أسفل دركات الأسر والقيد والظلمة، وكان في بداية الأمر يتوقف حزنه عند تغيّر الحال وصدمة الأسر، وكان وقتها على ثقة ويقين بأنه فارس قومه وحاميهم، فلن يتخلوا عنه وسيسارعون في فدائه، فأكثر حينها من طلب الفداء ليس خوفًا من الموت أو القيد، وإنما رغبة في الموت في ساحات المعارك، وليس أسيرًا ذليلًا في بلاد الروم. فكان يعاتب سيف الدولة ويستعطفه، ولكنه بعد فترة من أسره بدأ الشاعر يتوصّل إلى عدة نتائج وراء تأخر فدائه، ومع هذه الاستنتاجات استبد الحزن بالشاعر، وأصبح يعصف بكل جوارحه، وبدأ اليأس يتسلل إلى نفسه، فأصبح يعبّر عن غدر الأصحاب، وأنه لا صاحب له ولا شفيع إلا سيفه! يقول أبو فراس:[٦٥]

وأعظـــمُ أعـــداءِ الرجـــالِ ثقاتُهـــا	وأهـــونُ مَـــن عاديتَـــه مـــن تُحـــارِبُ
وشـــرُّ عـــدُوّيكَ الـــذي لا تُحـــاربُ،	وخيـــرُ خليلَيـــكَ الـــذي لا تُناسِـــبُ
ومـــن كـــان غيـــرَ الـــسيف كافِـــلُ رزقِـــه	فللـــذُلِّ منـــه لا محالـــةَ جانـــبُ
ومـــا أُنـــسُ دارٍ لـــيسَ فيهـــا مـــؤانِسٌ،	ومـــا قُـــربُ دارٍ لـــيس فيهـــا مُقـــارِبُ

إن الأبيات بها إسقاط فنّي بديع، يشير إلى مرحلة مهمة لانتقال الشاعر من مرحلة الحزن وصدمة الأسر إلى اليأس من الفداء، فقد تأخر سيف الدولة في فدائه، فليس في الأبيات هجوم مباشر ولكنه عتاب مصحوب بحسرة وألم تسللت باليأس إلى قلب الشاعر، ومع زيادة سيطرة فكرة اليأس على نفس الشاعر يزداد معها الشعور بالاضطهاد "وهو موقف يستولي على الشاعر فيه

[٦٤] : البرزة: الأسر والسجن، ص٤٦٢.
[٦٥] : الديوان: ٣٠.

شعور الاضطهاد من قِبل القوى الخارجية، ويعاني منه ذوو النفوس الكبيرة، الذين تبوؤا مراكز قيادية مرموقة، فلما سقطوا وقَرَ في نفوسِهم أنهم مضطهدون مخذولون في العالم".[٦٦]

يقول أبو فراس:[٦٧]

أمَـا ليلـةٌ تمـضي ولا بعـضُ ليلـةٍ! أَسُـرُّ بهـا هـذا الفـؤادَ المُفجّعـا؟
أمَـا صـاحبٌ فـردٌ يـدومُ وفـاؤه! فيُصفي لمن أصْفى ويرْعى لمن رَعى؟
أفـي كـلّ دارٍ لـي صـديق أوَدُّه، إذا مـا تفرّقنـا حَفِظـتُ وضـيَّعا؟
أقمـت بـأرض الـروم عـامين لا أرى مـن النّـاس محزُونَـا ولا مُتـصنِّعا
ولقـد رجـوت الله لا شـيء غيـره رجعـتُ إلـى أعلـى وأمّلـتُ أوسـعا

ويبدو أن الحكمة في شعر أبي فراس – خاصة روميّاته – كانت من أهم الملامح التي أشارت إلى تسلل اليأس إلى نفس الشاعر، فلم يعد يتحدث عن فدائه من الأسر، ولم يعد يعاتب سيف الدولة بشكل مباشر، بل يتحدث عن غدر الأصحاب، وأن الأيام لا يُؤمن عُقباها، فترفع الذليل، وتُخزي العزيز.

يقول:[٦٨]

ولـو نِيلَـتِ الـدنيا بفـضلٍ منحتُهـا فـضائل تحويهـا وتبقـى فـضائلُ
ولكنّهـا الأيـام تجـري بمـا جـرتْ فيـسفُلُ أعلاهـا، ويعلـو الأسـافِلُ

ويقول أيضًا:[٦٩]

وهـل يـدفعُ الإنـسانُ مـا هـو واقِـعٌ، وهـل يعلـم الإنـسانُ مـا هـو كاسِـبُ؟
وهـل لقـضاء الله فـي النـاس غالـبٌ، وهل من قضاء الله في الناس هارِبُ؟

(٦٦) : البرزة: الأسر والسجن، ص٤٥٤.
(٦٧) : الديوان: ٢٠٦.
(٦٨) : الديوان: ٢٤٤.
(٦٩) : الديوان: ٤٥.

إنها حكمة اليأس الذي سيطر على الشاعر بعد طموحٍ وعزّة، فأصبح أبو فراس " يتحسّر على هذه الهمم العالية الطويلة إن لم تنجدها أعمار تتلاءم معها طولا".[٧٠] يقول:[٧١]

ومُعتكـــفٍ علـــى حلـــبٍ بكـــيٍّ، يقـــوتُ عِطـــاش آمـــالٍ غِـــزارِ
يقـول لـي: انتظـر فرجًـا؛ ومـن لـي بـــأنّ المـــوت ينتظـــرُ انتظـــاري؟

ويصل الشاعر بحزنه إلى مرحلة بعيدة في يأسه من الفداء، فقد لاحت كثير من الإشاعات حول سبب تأخر سيف الدولة في فدائه، فهل كان السبب كما روت لنا كتب التاريخ بسبب الظروف السياسية والاقتصادية التي مرّ بها سيف الدولة في حروبه فقد توالت هزائمه من الروم، أم أن سيف الدولة قد استمع إلى الحساد والشامتين في أبي فراس بشأن طموحه الذي لن يقف عند إمارة منبج، وكان شعر أبي فراس وفخره بذاته يغذي تلك الفكرة. أم كان السبب أن سيف الدولة تأخر في فدائه لأنه أراد أن يكون الفداء عامًّا لأبي فراس وكل من معه من أسرى المسلمين لدى الروم؟[٧٢]

سيطر اليأس على نفس الشاعر وابتعد عنه أمل الفداء من أسر الروم، فصارت الحكمة سهامًا يصوبها تجاه سيف الدولة ومن حوله من الحساد والحاقدين، في إشارات رمزية من المؤكد أن سيف الدولة أو بعضًا ممن حوله قد فهم مراد الشاعر من ورائها "وكل لبيب بالإشارة يفهم".. يقول:[٧٣]

وخَبـــرتُ هـــذا الـــدهرَ خِبـــرة ناقـــدٍ حتـــى أنِـــستُ بخيـــره وبـــشرّه
لا أشـــتري بعـــد التجـــارب صـــاحِبًا إلا وددتُ بـــأنني لـــم أشـــرِه
مـــن كـــلّ غـــدّارٍ يُقـــرّ بذنبـــه، فيكـــون أعظـــم ذنبـــه فـــي عُـــذرِه
ويجـــيءُ، طـــورًا، ضُـــرّه فـــي نفعِـــه جهـــلًا؛ وطـــورًا، نفعُـــه فـــي ضُـــرّه
وأخٍ أطعـــت فمـــا رأى لـــي طـــاعتي حتـــى خرجـــتُ، بـــأمره، عـــن أمـــره

[٧٠] : الشكعة: فنون الشعر، ص٢٥٠.
[٧١] : الديوان: ١٩٠.
[٧٢] : انظر التنوخي: نشوار المحاضرة، ٢٨٨.
[٧٣] : الديوان: ١٦٣.

فالشاعر يتحدث عن الخير والشر، وعن خيبة أمله في صاحبه، وعن الغدر والخيانة من أقرب الناس إليه، وأن المصيبة لا تأتيه إلا من حيث يظن النفع يأتيه! ومن هو الأخ الذي أساء الظن فيه، وضاع الأمر بينهما؟

(٣): الانكسار وضياع الأمل

ظلّ أبو فراس أربع سنوات أسيرًا في بلاد الروم يُرسلُ الرسالة تلو الأخرى إلى سيف الدولة لفدائه، وما من مُجيب، فيحزنه الأسر، وتثقله القيود بالذل والهوان، وتضعف نفسية الشاعر يومًا بعد يوم وهو يسمع بمرض أمه ثم بموتها وهو في بلاد الأعداء لا يملك من أمره شيئًا، ويسمع بموت الأصحاب، وشماتة الحاقدين والحساد، وانصراف سيف الدولة عن رسائله لطلب الفداء.

وتتزاحم الأحداث على الشاعر، وترهقه نوائب الأيام وظلمة الأسر، وغربة الوطن فيقع فريسة للانكسار، وهذا ما نراه في كثير من أشعاره خلال أسره، وهذه المرحلة من مراحل حياته العنيفة المضطربة التي نال فيها الانكسار من قلب الشاعر، "ففيها مرارة الانكسار، وغربة الدار، وذل الإسار، وألم الجراح... رأى علوج الروم من حوله يشدون القيد، ويراقبون الوثاق، وهو جريح عليل – لا بالأسير ولا القتيل – تألم وهو يرسل في طلب الفداء، وتذهب أمه إلى حلب في الرجاء، فما ينفع كتاب ولا يشفع طلب".[٧٤] وتمر سنوات على الشاعر وهو في الأسر، وما من أمير يفديه، أو من صديق يُنجيه.

يقول وقد ثَقُلت عليه العلّة:[٧٥]

هـــل تعطِفـــانِ علـــى العليـــلِ؟ لا بالأســـــــير، ولا القتيـــــــلِ؟
أيـــــن المحبَّـــــة والـــــذّما مُ ومـــا وعـــدتَ مـــن الجميـــل؟
أجمِـــلْ علـــى الـــنفسِ الكريـــ ـــمة فـــيّ، والقلـــب الحمـــول!
أمـــا المُحـــب فلـــيس يُـــصْـ ـــغي فـــي هَـــواه إلـــى عـــذُولِ
يمـــــضي بحـــــال وفائـــــه، ويـــصُدّ عـــن قـــالٍ وقيـــلِ

(٧٤) : سامي الدهان: مقدمة تحقيق ديوان أبي فراس الحمداني، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٤٤م، ج٢/ت١٢.
(٧٥) : الديوان: ٢٦٣ – ٢٦٥.

فقد اشتدت العلة على الشاعر الأسير، "ويخشى أن يلقى منيته غريبًا في سجنه، بعيدًا عن وطنه، وحيدًا من أهله، فيكتب إلى سيف الدولة شاكيًا مستعطفًا، ويرق في شكواه، ويسمو في استعطافه حتى ليُظن أنه يرثي نفسه رثاءٍ مقنعًا".(٧٦)

لقد تغيّرت لغة الشاعر، واختلفت صوره حين يُرسل عتابًا لسيف الدولة، فقد اختفت خلال هذه الأبيات لغة الفخر والمواجهة التي كان يطلقها الشاعر من وقت لآخر في أول أمره، ويبدو أنه قد أحسّ – بعد سنوات من أسره، وتجاهل سيف الدولة له، ومرضه – أن الأمل في فدائه بعيد المنال، فقد سيطر عليه المرض، واشتدت به الجراح، وأحاط به الانكسار، فهو يستعطف سيف الدولة بلغة لم نرَها من قبل في أشعاره، فهو يستعطفه بمرضه في أسره حتى أوشك على الهلاك، فلا هو بالأسير ولا القتيل!

وحين بلغه أن سيف الدولة قد ردّ أمّه خائبة في مسعاها ورجائها في فداء ولدها من الأسر.. ولم يحفظ لدموعها قرابة، أو يشفع لتوسلها نسب.. أيقن أنّ أمر الفداء أصبح مستحيلا، وضاع معه الأمل.

يقول:(٧٧)

بـــــأيّ عُـــــذرٍ، رددتَ والِهـــــةً، عليـــــكَ، دون الـــــورَى، مُعوَّلُهـــــا
تلـــــك المـــــودّات كيـــــف تهملهـــــا؟ تلـــــك المواعيـــــد كيـــــف تغفلهـــــا؟
تلـــــك العقـــــود التـــــي عقـــــدت لنـــــا، كيـــــف، وقـــــد أُحكِمـــــتْ، تُحلّلُهـــــا؟
أيـــــن المعـــــالي التـــــي عُرفـــــت بهـــــا، تقولُهـــــــا، دائمًـــــــا، وتفعلهـــــــا؟

ما هذا الكم الهائل من الاستفهام الإنكاري تجاه سيف الدولة، وكأنّك تشعر معها أن أبا فراس يؤكد بها أنّ سيف الدولة قد أضاع المودة والعقود، وانصرفت عنه المعالي. إنها ملامح الانهيار الواضح بين الشاعر والأمير.. انهيار استتبع معه ضياع الأمل لدى الشاعر في فدائه،

(٧٦) : الشكعة: فنون الشعر، ص٣٧٧.
(٧٧) : الديوان: ٢٧٣ – ٢٧٤.

فلن يأتيه فداء من عند سيف الدولة. وظهر هذا الإحساس واضحًا حينما سمع حمامة تنوح قريبة من أسره.. يقول:(٧٨)

أقــولُ وقــد ناحــتْ بقُربــي حمامــةٌ: أيــا جارتــا، هــل تــشعُرين بحــالي؟
أيــا جارتــا، مــا أنْــصف الــدهر بيننــا! تعــالي أُقاسِــمْكِ الهُمــومَ، تعــالي!
تعــالي تــريْ رُوحًــا لــديّ ضــعيفة، تــردّدُ فــي جــسمٍ يُعــذّبُ بــالِ!
أيــضحك مأســورٌ، وتبكــي طليقــةٌ، ويــسكتُ محــزُونٌ، وينــدبُ ســالِ؟

إنه يأس وانكسار واضح من الشاعر ولغته (تشعرين بحالي، ما أنصف الدهر، أقاسمك الهموم، روحًا ضعيفة، جسم يعذب بالي، مأسور، محزون) ويأتي عليه العيد وهو في أسره فيقول:(٧٩)

يــا عيــدُ! مــا عُــدت بمحبــوبِ علــى مُعنّــى القلــب، مكــرُوبِ
يــا عيــدُ! قــد عُــدتَ علــى نــاظرٍ، عــن كُــلّ حُــسنٍ فيــك محجــوبِ

وتدور الأيام على الشاعر حاملة معها أعظم النوائب والنكبات لتلقي بها صوب قلبه، فتموت الأم مصدر الحنان، ومنبع الدعاء والرجاء، والخيط الرفيع الذي يربط بين الشاعر والأمل في الحياة من أجل هذه السيدة المريضة التي تنتظر عودة ولدها، فمن يسأل عنه؟ ومن يدعو له؟

مَن للشاعر بعد موتها يحزن لأسره، ويفرح لفدائه؟ فكانت الأم المعادل الموضوعي – النفسي – لدى الشاعر في محنة الأسر، فكانت هي الأمل في الحياة، وفي تحريك همّة سيف الدولة لفداء ولدها، ولكن تخونه يد القدر، فتموت الأم، ويبقى وحيدًا منفردًا روحًا وجسدًا. فيبكيها بكاء مريرًا، وينادي عليها نداء يقطر دمًا، بلوعة القلب الشاكي الباكي وهو يُردّدُ:(٨٠)

أيــا أُمّ الأســير، ســقاكِ غيــث، بكُــرهٍ منــكِ، مــا لقــي الأســيرُ!
أيــا أُمّ الأســير، ســقاكِ غيــث، تحيّــرَ، لا يُقــيم ولا يــسير!

(٧٨) : الديوان: ٢٦٧.
(٧٩) : الديوان: ٤٢ – ٤٣.
(٨٠) : الديوان: ١٨٣.

أيـــا أُمّ الأســـير، ســـقاكِ غيـــث، إلـــى مَـــن بالفـــدا يـــأتي البـــشيرُ؟
إذا ابنُـــكِ ســـار فـــي بـــرٍّ وبحـــرٍ، فمـــن يـــدعو لـــه، أو يـــستجيرُ؟
حـــرامٌ أن يبـــتَ قريـــرَ عـــينٍ! ولـــؤمٌ أنْ يُلِـــمّ بـــه الـــسّرورُ!

وفي سنة ٣٥٥هـ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين " وسار سيف الدولة بالبطارقة إلى الفداء، ففدى بهم أبا فراس ابن عمّه، وجماعة من أهله، ومن كان قد بقي من شيوخ الحمصيين والحلبيين"(٨١). ويتم الفداء " ويعود أبو فراس إلى حلب، ويتوفى سيف الدولة في السنة التالية، ويدور العام ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبي المعالي، ويلقاه مولاه قُرْغُوَيْه ٣٥٧هـ ويُقتل أبو فراس في ساحة الحرب"(٨٢).

لقد مات الفارس الشاعر، ومات من قبله سيف الدولة، ولم نجد رثاء لسيف الدولة في ديوان أبي فراس، واختلفت الآراء حول عدم رثاء الشاعر للأمير.. لكننا لا يمكن أن نتجاهل أن هناك انكسارًا كبيرًا قد حدث في العلاقة بينهما طوال مدة الأسر، وإلحاح الشاعر في طلب الفداء والاستعطاف والعتاب ثم انكساره بطول أسره ومرضه وموت أُمّه، حتى إذا حان وقت الفداء بعد أربع سنوات؛ كانت همّة الشاعر قد ضعفت، ورغبته في الحياة قد ولّت، وأصبحت لدية قناعة كبيرة بأن سيف الدولة قد تعمّد تأخر الفداء لحاجة في نفسه، فلم يرث الشاعر الأمير، بل إنه لم يتطرق في ديوانه بأي إشارة شكر أو امتنان لسيف الدولة على فدائه، وكأن الأمر أصبح واضحًا أنّ حبال المودة بينهما قد قُطِعت منذ مُدّة ليست بالقصيرة.

الخاتمـة

الشكوى في شعر أبي فراس هي الأكثر تكرارًا خلال رُوميَّاته، ويبدو هذا طبيعيًا نظرًا للظروف النفسية والمادية الصعبة التي مرّ بها في أسْرِ الرُّوم، حيث دارت به الأيام، واختلفت

(٨١) : ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ص٨٥.
(٨٢) : شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات "الشام"، ص ٢٢٤.

معها الأحوال فصار أسيرًا ذليلا، ووحيدًا بعيدًا عن الأهل والأصحاب، بعد أن كان فارسًا أميرًا عزيزًا.

لم تكن إمارة الشعر هدف الفارس الشاعر الأديب ومبتغاه، وإنما القيادة والزعامة السياسية كانت فلكه الذي يدور فيه.. وجاء الشعر مُكمّلا في هذا الفلك تَابعًا لرغبة الزعامة في نفس الشاعر. فيبدو أن أبا فراس كان دائمًا مُحِبًّا للسبق والتفرد، فكان فارس بني حمدان، وقائد جيش سيف الله.

كان تأخّر سيف الدولة في فداء الشاعر من أهم أسباب الشكوى في شعره خلال أسره، فاختلفت الأسباب والروايات حول تأخر سيف الدولة في فداء أبي فراس؛ ما بين تأخير متعمد من سيف الدولة لأنه أحسّ من أبي فراس طمعًا في المُلك، فقد رأى ذلك من خلال زهوه بنفسه في الشعر وشجاعته، فرأى أن يصرفه عن وجهه زمنًا ويمدّ في أسرِه ليُضعف عزمه، ويُريه أن الدولة غنيّة عنه.. أو تأخير غير متعمد، وخارج عن إرادة سيف الدولة نظرًا للظروف السياسية والاقتصادية الصعبة التي مرَّ بها الأمير، ورغبته في أن يكون الفداء عامًّا لأبي فراس وجميع المسلمين في أسر الروم معه.

وكان لغياب الشاعر عن أمّه وأهله وأصحابه تأثير قوي في انبعاث هذه الشكوى خلال شعره، فهو لا يملك من أمره شيئًا، وهو بعيد عن هذه الأم المريضة في منبج وتحتاج إلى ولدها، ويسمع أخبارها وهو في أسره، ولا يملك إلا أن يدعوها إلى الصبر والجلد، وتزداد أسباب الشكوى عنده حين يعلم بموتها، وانقطاع الخيط الرفيع بين الشاعر والرغبة في الحياة، فقد جفّ نبع الحنان، وولّت قبلة الدعاء.

وجّه الشاعر شكواه تجاه سيف الدولة في المقام الأول، واختلفت وسائله في هذه الشكوى ما بين استعطاف في البداية، وتذكير الأمير بمكانة أبي فراس، وخدمته لأهله وعشيرته، وما بينهما من صلة للقرابة والنسب، وكانت الشكوى تنتقل إلى مرحلة أخرى من العتاب لسيف الدولة حين

يتجاهل سيف الدولة هذه الرسائل، وقد تتحول إلى ثورة عنيفة وعتاب صارخ حين يعلم بأن سيف الدولة ردّ أمه العجوز خائبة، أو أن يصف الشاعر بأنه خامل الذكر قليل الأهمية.

وكانت شكوى الشاعر من الأهل والأصدقاء ممّن شمتوا به في أسرِه، ولم يحاولوا افتدائه أو السؤال عنه، وكأن الدهر والأيام قد انقلبت على الشاعر فصار يشكو من الدهر ويحاور الطبيعة من حوله، فصار شعره حكمة نافذة أثقلتها الأيام والتجارب حين يشدو بشكواه تجاه الدهر.

واستخدم الشاعر الإسقاط الغزلي في روميَّاته بشكل فريد وأسلوب بديع، حاول من خلاله عتاب سيف الدولة، ولومه على التأخر في فدائه، وإنكاره لمكانة الشاعر وأهميته في بلاطه، وعدم حفظه للعهود والقرابة بينهما، وبأسلوب رمزي من خلال روميّاته، وكأن الشاعر يحاول جاهدًا أن يُبقي على خيط رفيع بينه وبين سيف الدولة، وفي الوقت ذاته قد صنع لنفسه دربًا يبثه شكواه دون خسارة أو مواجهة.

والشكوى في شعر أبي فراس لها آثارها الواضحة بداية بالحزن وصدمة الأسر، فقد سيطر عليه الحزن في البداية مع إحساس بالصدمة، فكان لا يصدق ما آلت إليه أحواله من عزٍّ وكبرياء إلى خزي ومذلّة، استيقظ خلالها على ظلمة الأسر وضيق القيد فأرسل رسائله يستعطف ويفتخر بمكانته وأصله والقرابة والنسب، وكان يظن أنه لن يبقى طويلا في الأسر، فقومه لن يترددوا في فداء فارسهم وحاميهم!

وقد سيطر اليأس على الشاعر بعد مضي فترة طويلة في أسره، فقد توالت رسائل الاستعطاف والعتاب لسيف الدولة وما من مجيب، وتأتيه الأخبار عن سفر أمه لابن عمه تستعطفه ولم يستجب لتوسلاتها ومرضها لفداء ولدها، وأيقن أن سيف الدولة قد تعمد بقائه في الأسر، وأنه لا أمل في فدائه فاستقر اليأس في نفسه بعد طول الأسر، وانصراف سيف الدولة عن فدائه.

وبعد أن استبد الحزن بالشاعر، وتمكَّن اليأس من قلبه ضاعت أحلام الفارس في الخروج من أسره، وأحسّ أنه سيموت أسيرًا ذليلا، وليس فارسًا مقاتلا في ساحات المعارك، وأن الجميع في

الخارج قد نسي هذا الفارس.. هنا انكسر الشاعر وتحول شعره من فخر وتيه ومواجهة في كثير من مواقفه مع سيف الدولة إلى استعطاف وتوسل بمرضه، وظلمة الأسر، وضيق القيد، وضياع أمله في الحياة مع موت أمه، فصار شعره رثاء للنفس، تشعر معه بانكسار لمعنويات الفارس، وخيبة الأمل، وقرب النهاية.

المصادر والمراجع

أدباء العرب في الأعصر العباسية: بطرس البستاني، دار مارون عبود، بيروت، ١٩٧٩م.

الأسر والسجن في شعر العرب: أحمد مختار البرزة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٩٨٥م.

أعلام الكلام: ابن شرف القيرواني، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٢٦م.

تاريخ الأدب العربي "الأعصر العباسية": عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.

تجارب الأمم: ابن مسكويه، مصر، ١٩١٥م.

الخالدون من أعلام الفكر: أحمد الشنواني، دار الكتاب العربي، مصر، ٢٠٠٦م.

خطط الشام: محمد كرد، مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٣م.

ديوان أبي فراس الحمداني؛ تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٤٤م.

ديوان أبي فراس الحمداني: شرح يوسف فرحات، دار الجيل، بيروت، د.ت.

زبدة الحلب في تاريخ حلب: ابن العديم الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

شاعر بني حمدان: أحمد بدوي، مكتبة الأنجلو، مصر، ١٩٥٢م.

شعر أبي فراس الحمداني: ماجدولين بسيسو، الرياض، ١٩٨٨م.

شعر الحرب في أدب العرب: زكي المحاسني، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م.

الصبح المُنبي عن حيثية المتنبي: يوسف البديعي، تحقيق: مصطفى السقا، ومحمد شتا، وعبده زيادة، دار المعارف، مصر، ١٩٩٤م.

عصر الدول والإمارات "الشام": شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٩٩٠م.

الغزل؛ فنون الأدب العربي: لجنة من أدباء الأقطار، دار المعارف، مصر، ١٩٨٠م.

الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، دار العلم والثقافة، مصر، ١٩٩٧م.
فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين: مصطفى الشكعة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨١م.
القصيدة العباسية: عبد الله التطاوي، دار غريب، القاهرة، د.ت
الكامل في التاريخ: ابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.
معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، مصر، ٢٠٠٨م.
نشوار المحاضرة: التنوخي، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
يتيمة الدهر: الثعالبي، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.